مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

التشرّد والضياع عند الشعراء الصعاليك

(دراسة في أبعادهما الدلالية)

Homelessness and loss in the poetry of the tramps

(a study in their semantic dimensions)

محمد محمود العمرو[1] ، أحمد علي جودة [2]

جامعة العلوم الإسلامية العالمية / الأردن

تاريخ الإرسال: 2022/11/22 تاريخ القبول :2023/03/22 تاريخ النشر: 01 /06/ 2023

Abstract:

The study talked about the meanings of homelessness and loss in the poetry of the tramps, as homelessness and loss after the expulsion of the tramps from their tribes became a concern that distressed their life. Their living is based on homelessness and the sense of lifelessness emanating from the expulsion that is unbearable. Therefore, the trap did not see anything in his estrangement more severe than the feeling of loneliness and the existential anxiety stemming from expulsion, the lack of a sense of security, the fear of death, and the dangers that surround him from every side.

The study followed the descriptive approach, sometimes using the psychological data and principles to explain some of the unconscious aspects of the tramp's life and poetry.

The study concluded that the cries of poverty and hunger that abound in the poetry of the tramps are nothing but the homelessness of the poet as a result of his expulsion from the tribe, his movement and his constant fear of dangers and fear of death, and that the qualities he carried as a result of his homelessness such as altruism, generosity, courage and horsemanship are only a kind of participation the compassion of the tramps with each other and a revolution against tribal

[1] Mohamad.amro@wise.edu.jo

[2] Ahmad.Joudeh@wise.edu.jo

traditions; Because they deserve to be knights in their tribes for their ethical and congenital traits that characterize them.

Keywords: homelessness, loss, tramps' poetry, pre-Islamic poetry.

الملخص:

تناولت الدراسة الحديث عن معاني التشرد والضياع في شعر الصعاليك، حيث أنَّ التشرد والضياع بعد طرد الصعاليك من قبائلهم أصبح الهم الذي يُنغِّص عليهم حياتهم، فعيشهم قائم على التشرد، والإحساس بعدمية الحياة النابعة من الطرد ثقيلة على النفس لا تحتمل، لذلك لم ير الصعلوك شيئًا في غربته أقسى من الشعور بالوحدة والقلق الوجودي النابع من الطرد وعدم الشعور بالأمن والخوف من الموت والأخطار التي تحيط به من كل جانب.

وقد اتبعت الدراسة فيه المنهج الوصفي مستعينًا-أحيانًا- بمعطيات علم النفس ومبادئه لتفسير بعض الجوانب اللاواعية في حياة وشعر الصعاليك.

وتوصلت الدراسة إلى أن صيحات الفقر والجوع التي يزخر بها شعر الصعاليك ما هي إلاَّ التشرد الواقع على الشاعر جراء طرده من القبيلة، وتنقله وخوفه الدائم من الأخطار والخوف من الموت، وأنَّ الصفات التي حملها نتيجة تشرُّده من إيثار وكرم وشجاعة وفروسية ما هي إلاَّ نوع من المشاركة الوجدانية للصعاليك مع بعضهم بعضًا و ثورة على التقاليد القبلية؛ لأنَّهُم يستحقون أن يكونوا فرسانًا في قبائلهم لصفاتهم الخَلقية والخُلُقيَّة التي يتصفون بها.

الكلمات المفتاحية: التشرد، الضياع، شعر الصعاليك، الشعر الجاهلي

مقدمة:

نال شعر الصعاليك حظوة كبيرة عند الباحثين، ولا سيما أن هذاالشعر يمثل حالة إنسانية نادرة من حيث البناء والمعنى فقد اتخذ هؤلاء الشعراء لشعرهم بناءً خاصًا، إذ لم يلتزموا بما ألزم به الشاعر الجاهلي نفسه من الوقوف على الطلل والحديث عن المحبوبة والارتحال بحثًا عنها، فإذا كان الصعلوك فاقدًا لذاته، فالأجدر به أن يبحث عن ذاته لا عن المحبوبة المتخيلة، ومن جانب المعنى فقد فارق الشعر الجاهلي من حيث الاهتمام بالقبيلة والفخر بها، والحديث عن كرمه من خلال ذكر الخمرة بل نجده يتحدث عن جوعه وفقره وسعيه الدائم لإيجاد ما يسد به الرمق.

تناولت الدراسة التشرد لا بمعناه المعتاد، وإنما التشرد عند الصعاليك من خلال فقد القبيلة وما ينتج عنه من فقد الأمان النفسي والاجتماعي، فالأمان النفسي إن فقد، فقدت معها الذات إحساسها بالشبع،

والشبع اثنان: مادي ممثل بالطعام والشراب، والآخر معنوي ممثل بالضياع بعد طرد القبيلة له، وعندها يصبح إحساسه بالفقر والحاجة ماثلًا بين يديه وفي ثنايا شعره، كيف لا وهو لا يشعر بالغنى النفسي ممثلًا بانتمائه لقبيلة، فهو وحيد يجوب الصحاري خائفًا مُترقبًا. كثيرة جدًا هي الكتب التي كُتبت في الشعر الجاهلي وفي شعر الصعاليك تحديدًا، وتحدثت عن حياتهم وطردهم أذكر منها:

1- يوسف خليف، الشعراء والصعاليك، دار المعارف، القاهرة

2- شوقي ضيف ، العصر الجاهلي، دار المعارف القاهرة

3- يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، دار الحقائق، لبنان

ومع ذلك لم نجد من قام بدراسة أثر التشرد في شعر الصعاليك

ولدلالاته في شعرهم، لذا قامت هذه الدراسة على الإجابة عن الأسئلة التالية:

1-ما الذي دفع الصعلوك للحديث عن الجوع والفقر وما تعلقهما بالتشرد

والضياع؟

2-هل أراد أن يوصل رسالة من خلالهما للمتلقي؟ ما الهدف من إيصال رسالته للمتلقي؟

3-هل كان ثائراً على مجتمعه وقوانينه؟

4-ما أثر التشرد على صفات الصعاليك وأخلاقهم؟

هدف الدرسة: تهدف الدراسة إلى بيان الأسباب الذي جعلت الشاعر الصعلوك يكثر من ذكر الفقر والجوع كنتيجة للتشرد والضياع الذي يعيشهما في شعره.

مشكلة الدراسة: يظن البعض أنَّ الجوع والعطش هما ما يهتم به الصعلوك الجاهلي ويخاف من الموت لفقدهما، ولكن المشكلة الحقيقية عنده ما يجده من تشرد وضياع في الصحراء بعد طرده من قبيلته. فالجوع والفقر الذي يبكيهما في شعره ترمزان للتشرد والضياع بمفهوم أعم وما يُلاقي جراءهما من جوع وفقر وخوف وموت يحيق به من كل جانب.

منهج الدراسة: استخدم الباحثان في دراستهما المنهج الوصفي كأداة إجرائية للكشف عن الدلالات المضمرة في شعر الصعاليك، مستفيدين من علم النفس في بعض المواطن لِإثبات ما تذهب إليه الدراسة من نتائج.

ولقد قامت الدراسة على مقدمة ومبحثين، تحدثت في المبحث الأول عن الأبعاد الدلائلية للتشرد والضياع عند الصعاليك، وفي المبحث الثاني تحدثت عن أثر التشرد والضياع على صفات الصعاليك، ثُمَّ جاءت الخاتمة تلها قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول: الأبعاد الدلائلية للتشرد والضياع عند الصعاليك:

يمثل التشرد وعدم الاستقرار أحد أهم أشكال الحياة العربية عامة والصعاليك خاصة، فطبيعة البيئة العربية قد فرضت على العربي ألاّ يستقر في مكان واحد باستثناء الواحات والأماكن التي يكثر فيها الماء – فهو دائم الترحال، وساهمت البيئة العربية في التشكيل البنائي الشعري العربي، فكانت "اللبنة الأولى من القصيدة العربية الجاهلية طلل" (ابن قتيبة(د.ت)،ج1،ص76).اختلف مفهوم التشرد عند الصعاليك خاصة عنه عند العرب عامة، ويعود ذلك إلى أن رحيل العرب وعدم استقرارهم كان بدافع طلب الحياة، أما الصعلوك فقد كان يرتحل مطرودًا من القبيلة التي كانت ترى بطرده حياة لها، فجرائره الكثيرة تكفل بأن تجعل القبيلة في حرب مستمرة مع القبائل الأخرى، لذلك طردته القبيلة لتحافظ على أرواح أبنائها، ولهذا فقد كان الرحيل بالنسبة للصعلوك شكلًا من أشكال الموت أو قلْ موتًا مؤَجلًا، لذا كانت مشاعره تجاه الحياة والكون في حالة تأزُّم، ولمَ لا؟ وهو يشعر أنَّه وحيد مُطارد لا يجد أمانًا ولا طعامًا، يعيش حياة كالحيوانات أو قل حيوانًا ناطقًا، لا يألف أحدًا ولا يألفه أحد سوى حيوان الصحراء. وقد استخدم ألفاظاً تحاكي واقعه كالجوع والفقر لكل شيء في حياته، ولكن هذين الرمزين لهما دلالات كثيرة نابعة من تشرده وإحساسه بالضياع والخوف، ومن هذه الدلالات:

أولاً: الجوع والفقر الناتجين عن الضياع التشرد: " فالصعلوك هائم على وجهه يبحث عن الاستقرار، يصور حيرته في هذه الصحراء المترامية الأطراف" (خليف، (دت)، ص247)، يقول الشنفرى(الشنفرى، 1998، ص 74): (بحر الطويل)

وأغدو إلى القُوت الزَّهيد كما غدا أزلُّ تهاداهُ التنائِفُ أطحلُ

يعيش الشنفرى هاجس الضياع، فالشكل الأول الذي يتحدث عنه كنتيجة طبيعية من نتائج التشرد هو الجوع الذي بات يتخيل نفسه في هذه الصحراء سائراً يبحث عن الطعام القليل الذي يسد به جوعه فلا يجده، فانعكس ذلك على جسده نحلًا، وعلى نفسهاجسًا ممثلًا بمستقبل مجهول، لا يعلم أين القرار.

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد: 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

"ولم يصطنع الصعاليك الفقراء وسيلة واحدة على تحصيل أقواتهم والتغلب على ما كان ينتابهم من الأزمات في حياتهم ... وجرَّبوا طُرُقًا كثيرة تتراوح بين السمو بالنفس والارتفاع عن ذل السؤال والتلطُّف ..." (إبراهيم، 2001، ص110).

ومن الصور الرائعة التي تُصوِّر حياة التشرد عند الصعاليك من جوع ولبس البالي من الثياب الذي لا يقي صاحبه حرًا أو بردًا، لذا كان هذا دافعًا له للإغارة على القبائل وقطع الطرقلشعوره بالحزن والغضب على حاله.

فأي شيء غير الجوع يوجع الإنسان؟ وأي شيء يتذكره الإنسان عند الطرد والتشرد غير إحساسه بفقد الأمان الاقتصادي، ممثلًا بفقد الطعام والشراب عند حاجته؟ يقول أبو خراش الهذلي (الهذليين، الديوان، 1965، ص127-128): (بحر الطويل)

وإنّي لأَثوي الجوع حتى يَملَّني فيذهبَ لمْ يدنِّسَ ثيابي ولا جِرْمي

وأَغتبقُ الماءَ القرَاحَ فأَنتـهِي إذا الزَّادُ أمسَى للمزلجِ ذا طعْـمِ

أردُّ شُجاعَ البَطنِ قدْ تعْلمـينَهُ وأُؤثِرُ غَيري مِن عِيالِ بالطَّعْـمِ

مَخَافةَ أنْ أحْيَا بِرغْمٍ وذِلّـَـةٍ ولِلمَوتِ خَيرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلى الرُّغْمِ

فالجوع هو أول سبب يُخرج الصعلوك للبحث عنه، ونحن نعلم بأنَّالصعاليك طوائف ثلاث:

1- طائفة الخلعاء الشُّذَّاذ الذين تبرأت منهم قبائلهم لكثرة جرائرهمكتأبط شراً.

2- طائفة الأغربة السُّود الذين أُمهاتهم حبشيات ولم يعترف بهم آباؤهم لسواد بشرتهم. كالشنفرى والسليك بن السلكة.

3- طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة للظروف الاقتصادية، واحترفوا الصعلكة احترافاً ومنهم عروة بن الورد ومجموعة من شعراء هذيل (جابر، 1990،ص22) ومنهم أبو خراش الهذلي.

ويرى السليك بن السلكة أنَّ الجوع وجع قد ألمّ بهم جميعًا، وأثارضجيجه،ظاهر على القسمات والملامح بادية على الجسم نحلًا وعلى الوجه شيبًا، وأصاب صاحبه حالة من حالات الإغماء وفقدان الوعي، يقول السليك بن السلكة (ابن سلكة، 1994، ص84) (بحر الطويل)

حَتَّى رَأَيْتُ الجُوعَ بالصَّيْفِ ضَرَّنِي إذا قُمْتُ تَغَشَّاني ظَلَامٌفأسْدِفُ

إن من أبين علامات التشرد فقدان الإحساس بالأنا الأعلى التي تمثل مخزونًا للقيم المغروسة والمثل والمعايير الأخلاقية والاجتماعية (دمنهوري، 2009، ص 42)، "فإذا جاع الإنسان وهو عزيز النفس، فإنه يتخلى

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

عن جميع المثل المشكلة للقيم الأخلاقية والاجتماعية في سبيل المحافظة على نفسه والبقاء على قيد الحياة" (أبو غزالة، 2013،ص242)، فإذا شعر الإنسان بخطر يهدده هانت عليه عزته، وفقدت نفسه إحساسها بالفخر بذاته وقبيلته التي تخلت عنه، وعندها يريق الإنسان ماء وجهه، فيسأل الناس، " لأن الجوع الناتج عن تشرده بات مُضِرًّا به، فقد أوصله حد فقدان الوعي، الذي يمثل بدوره مرحلة أولى من مراحل الموت" (منسي، 2004، ص 248). فإذا أحس الإنسان بخطر الموت يقترب منه، "لا شك أن هذه النفس العربية العزيزة تتحول تحت وطأة الإحساس بالخوف على الأنا الأعلى إلى الأنا السائلة المنكسرة، علّها تجد ما يحييها ويبقيها على قيد الحياة" (الختاتنة، 2015، ص261).

فتأبط شرًا عندما رأى جسده ينحل حتى باتت عظام الصدر بارزة ظاهرة، والبطن خاوٍ ملتصق بالظهر من شدة الجوع، فأنشد(تأبط شرًا ، 2012، ص34):(بحر الطويل)

قَلِيلِ ادِّخارِ الزَّادِ إلاَّ تَعِلّةً فَقَدْ نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والْتَصَقَ الْمِعَا

إنَّ من أوضح علامات التشرد التي تظهر في البيت قوله: قليل ادخار الزاد، وقد ظهرت هذه الصفات على جسمه عند قوله: نَشَزَ الشَّرْسُوف، والتصقت أمعاؤه بالظهر من شدة الجوع، والجوع الدائم الذي أورثه نحلًا ترتب عنه هذه الصورة التي رسمها لضعف جسده وبروز عظامه، حتى بات يخشى على نفسه الموت من قلة الطعام، فراح يَدَّخِرُ جزءًا من طعامه إذا حصل عليه، ضمانًا لبقائه؛ " لأن الطعام ليس بمقدوره أومتناول يده، ويظهر هذا المعنى عند تأبط شرًا في حديث الشنفرى عنه، حينما وكّل الصعاليك أمرهم في الزاد لتأبط شرًا، فكان يقتّر عليهم في الطعام ولا يعطيهم إلاّ ما يسدّ الرمق" (حفني، د.ت، ص 191) يقول الشنفرى(الشنفرى، 1998، ص97):(بحر الطويل)

وأُمُّ عيالٍ قد شهِدتُّ تَقوتـُهُم إذا هي آدَمَتْهُم وأَقَلَّـتِ

ومَا إنْ بها ضَنٌّ بما في وِعائِها ولكِنها من خِيفَةِ الجُوعِ أَبْقَتِ

تَخَافُ عَلَيْنَا الهَزْلَ إنْ هيَ أَكْثَرَتْ وَنحْنُ هُزالٌ أيَّ آلٍ تَأَلَّـتِ

فالشنفرى يجعل من تأبط شرًا أُمًّا، ونحن نعلم مدى خوف الأمّ على عيالها، وهذا ما وصف به الشنفرى تأبط شرًا، فمن شدة خوف الأم على أبنائها، فهي تسعى لأن تزيد عمر الطعام من خلال التقتير عليهم علّها بهذا الصنيع تزيد في عدد أيامهم في الحياة أو علّها تجد طعامًا جديدًا تدفع بهم من خلاله لحياة أطول وعمر أمد.

إنّ من علامات الفقد والتشرد في أبيات الشنفرى السالفة أنْ جعل من رجل صعلوك مثلهم أُمًّا لهم تقوم على رعايتهم، وتهتم بشؤون طعامهم، فمتى يكون الرجل أُمًّا من حيث الإحساس إلاّ في حال الضياع والتشرد وفقد القبيلة؟

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

ويتحدث تأبط شرًا عن جوعه ونحله، مقارنًا نفسه بذئب نحيل قد هدّه الجوع، وأضعف جسمه، يقول تأبط شرًا (تأبط شرًا، 2012، ص62):

(بحر الطويل)

ووَادٍ كَجَوفِ العَيرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذِّئبُ يَعْوِي كَالخَلِيعِ المُعَيَّلِ

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَى إنَّ شَأْنَنَا قَلِيْلُ الغِنَى إنْ كُنْتَ لَمَّا تَمَوَّلِ

كِلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرِثْ حَرْثِي وحَرْثَكَ يُهْزَلِ

يمثل الوادي القفر الذي قطعه تأبط شراً مظهراً من مظاهر الضياع الذي

يعيشه الشاعر، فقد صور الوادي بالموات، فلا حياة فيه،فهو يشبه حياة الصعلوك بالوادي الذي يخلو من الحياة والنشاط، لا بل إن حياة تأبَّط شرًّا في الوادي تشبه حياة الذئب الذي جعله خليع الصوت عاليه، فهو يكثر من التذمر والصراخ، وهذا ناتج عن إحساسه بالقهر والرفض؛ لأنّه غير قادر على أنْ يجد الطعام لنفسه وعياله الكُثُر، فهذا المعنى – وإن كان يتحدث فيه عن الذّئب ظاهرياً – إلا أنه يشير إلى حياته وجوعه وحاجته، لذلك نجده في البيت التالي يجمع ذاته إلى ذات الذّئب في الفقر والفاقة، من خلال تصوير الذاتين بأنهما قليلا الغنى الذي يترتب عليه الفقر والجوع. إنّ هذه الصورة اللفظية المتكررة عن الفقر والجوع عند الصعاليك، إنما هي " من الآثار الباقية في الذاكرة، وقد كانت في وقت ما إدراكات حسيّة، ومن الممكن أن تصبح حسية مثل جميع الآثار الباقية في الذاكرة" (فرويد، سجموند، 1982،ص35).

لقد وصف الشاعر الحالة التي يلتقي فيها مع الذئب، فكلاهما لا يعرف استقرارًا، ومن علامات عدم معرفتهما للاستقرارالسرعة، فكلاهما يأخذ ما يغنم ويركض حتى لا يدرك، فطبيعة الحياة قد تركت فيهما من التشابه في صفتي السرعة والجوع، وقد نتج عن هاتين الصفتين نحلاً في الجسم وخفة في الحركة. "ولهذا نجد الذئاب معادلاً موضوعيًا لذات الشعراء الصعاليك" (اليوسف، 1985، ص 210.). يقول عروة (ابن الورد، عروة ، 1994، ص 62):

(بحر الطويل)

فسِرْ في بِلادِ اللهِ والتَمِسِ الغِنَى تَعِشْ ذا يَسَارٍ أوْ تَمُوتَ فتُعْذَرَا

إنّ من شرور الفقر حسب فلسفة عروة بن الورد – أن يأتيك السائلفلا تجد عندك ما تسد به رمقه، فإذا كنت غير قادر على إطعام الفقير، فالموت أفضل من الحياة، ثم إن المعادلة تقتضي أن الإنسان إذا كان فقيرًا، فإن قصوره يقع مع نفسه قبل الآخر السائل، إنّي لا أظن شيئًا يدفع بالإنسان للحديث عن الفقر وبذل نفسه في سبيل طرده إلاّ من خلال صوت بطنه الذي يطلب الأكل من صاحبه، فيكون جوابه: إني لا أجد ما أجود

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

به على نفسي، فكيف أعطي السائل؟ وكانت من عادات العرب أن يقدم السائل على النفس، فكيف إذا كان السائل ابنه ويراه جائعًا؟ " ألا تظن أن يطرح نفسه في طريق الموت ليخلِّص عياله من الفقر والجوع؟ ولا سيما أن عروة يعيش التشرد بسبب ثورته على النظام الاجتماعي القبلي، ولهذا أُخرج من القبيلة وتشرد وعاش حياة الفقر والجوع" (أبو زيد، 2011، ص 242.) يقول عروة (ابن الوردة، عروة، الديوان، ص 26):(بحر الطويل)

ومَنْ يَكُ مِثلي ذا عيالٍ ومقترًا مِنَ المالِ يَطْرَحْ نَفْسَه كلَّ مَطْرَحِ

لقد اتسعت دائرة العيال عند عروة بن الورد حتى شملت جميع الفقراء والصعاليك، فقد قيل "إن عروة بن الورد كان يطلق عليه أبو الفقراء، فقد كان الفقراء يجتمعون أمام بيته حتى إذا رأوه نادوه يا أبا الفقراء لا نجد ما نأكل، فكان يأخذهم للغزو" (الأصفهاني، أبو فرج (د.ت)، الأغاني، ج 3، ص 83)، أفنستغرب بعد ذلك إذا قال عروة: يطرح نفسه كلّ مطرح؟

" إنّ الإنسان يخاف على عياله خوفًا شديدًا، ويبذل نفسه وماله وروحه لأجل عياله، ولا سيما أن الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير" (خليف،د.ت، ص29)، "فكيف إذا كان الفقير صعلوكًا مطرودًا أو أخرج نفسه كعروة بن الورد؟ "(خليف، د. ت ، ص 323)

وإنّ الجوع ليشتد بعروة بن الورد فينادي أصحابه الصعاليك نداءً من لا يطيق الصبر على الجوع، فيقول لهم: قوموا فإنّ الموت خير من الجوع والهزل (انظر: خليف يوسف، الشعراء الصعاليك، ص31) ، يقول عروة(ابن الورد، ،1994، ص75): (بحر الطويل)

أَقِيمُوا بَنِي لُبْنَى صُدُورَ رِكَابِكُم فَإِنَّ ضَنَايا القَوْمِ خَيْرٌ مِنَ الهَزْلِ

إن كانت الثورة على قانون القبيلة تدفع إلى الخروج عليها، فكيف إذا كان

محرك الثورة أمران: الأول: نفسي، يضيف النفس التي تشعر بالظلم. والثاني: اجتماعي، بطرد القبيلة لكل من يخرج على أعرافها. فإذا خرج على أعرافها وقوانينها طرد وتشرد وجاع، فهل يتركون أجسادهم للموت ينهشها؟

كان العرب يعيشون في الجاهلية في قبائل-من الجانب السياسي- وحياتهم قائمة على الحروب، والقبائل القوية تُغير على الضعيفة فتقتل رجالها وتغنم مالها وتسبي زوجاتها وتبيع أولادها في أسواق النخاسة، لذا كانت القبائل الضعيفة تُعاهد القبائل القوية لتحمي نفسها من القبائل القوية التي قد تُغير عليها، وفي كل قبيلة قانون لحماية نفسها من الحروب فإنْ ظهر في القبيلة من يقوم بجرائر كقتل أو السرقة من قبيلة قوية تقوم هذه القبيلة بطرد المجرم وإخبار القبيلة صاحبة الثأر بطرده وإهدار دمه، فيقوم فرسانها بمطاردته في الصحراء حتى تقتله وتثأر منه. أمَّا إذا لم تطرده قبيلته عند ذلك تقوم حرب مستعرة بين القبيلتين لسنوات طويلة، وكل قبيلة

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

لها عهود أو قرابة مع قبائل أُخرى تشاركها حربها وتستمر الحروب بينهما حتى يتفانى أبناء القبيلتين فيها، ثُمَّ يظهر بعد ذلك مَن يُصلح بين القبيلتين ويدفع الدِّيَّات ليحقن دماء القبيلتين كما فعل هرم بن سنان بإيقاف الحرب بين عبس وذبيان ومدحه زهير بن أبي سُلمى في معلقته. لذا تلجأ القبيلة لطرد من يقوم بجرمٍلحمايتها كما حدث ذلك مع تأبط شرًا.وإذا حاولت القبيلة دفع الدِّية للقبيلة التي قُتِل منها أحد أبنائها، فمن العار أنْ تقبل الدِّيَّة وتلجأ للحرب حتى لا تُعيَّر بذلك فيما بعد على ألسنة الشعراء، فيصبح قبول الدِّية عاراً يُلاحق القبيلة طوال الحياة فتصبح أمام القبائل لا عزَّ لها ولا أنفة فتطمع بها القبائل الأُخرى لعلمها أنَّها لا تثأر لقتلاها. وأيضاً كان الموت في ساحة المعركة من أشرف الموت الذي يتمناه كلشريف وعزيز من الفرسان، لذا خيار الحرب لأخذ الثأر هو الخيار الأول للقبائل.

وأمَّا الصعاليك الذين طردوا من قبائلهم بجرمٍ اقترفوه أو ظلم فهم يرفضون التشرد والضياع ويشعرون بأنَّ التخلي عنهم ليس حلًا صائبًا وكان لزامًا على قبائلهم ألاَّ يُفرّطوا بأبنائهم كما أنَّ أبناء القبيلة لا يتخلون عن قبيلتهم وقت الحاجة، وحاول كثيرون منهم كعروة أنْ يُهاجم الأغنياء البخلاء من القبائل، وحاول غيره بقطع الطريق والقتل والنهب كالشنفرى وتأبط شرًا عسى القبائل أنْ تُغيّر قانونها الجائر وتُرجع مَنْ طردته منهم لكن دون فائدة، فكل جريرة يفعلها الصعاليك مدعاة لتتمسك القبائل برأيها أكثر، لأنَّ بطرد هؤلاء المجرمين حافظت القبيلة على حياة أبنائها من الحروب التي سيسببها هؤلاء الصعاليك بجرائمهم.

ثانياً: الشعور بالملاحقة والخوف: الشنفرى الذي لم يُرد الحديث عن التشرد من خلال هجر المكان وتركه، وإنما أراد الحديث عن التشرد من خلال النتيجة المترتبة على فقد المكان الذي تبدو جلية وواضحة الأثر في شعر الصعاليك، إنه الجوع والفقر للأمن والسلام في هذا المكان، فهما النتيجة الطبيعية للتشرد وعدم الاستقرار، ففي القبيلة يتلاشى التشرد والضياع عندما يجد من يقدم له الطعام من أغنياء القبيلة الكرماء، أما الطريد فإنه لا يجد من يساعده، ولهذا سأقف عند حديث الصعاليك عن الفقر والجوع على اعتبارهما شكلاً من أشكال التشرد في شعر الصعاليك الذي يمثل أحد الإقرارات النفسية الناتجة عن الإحساس بفقد القبيلة الأم، والأم هي من تهتم بطعام أبنائها، فكيف إذا فقد الإنسان أمّه؟ فمن أين يأتيه الطعام والإحساس بالأمان؟ والتشرد والضياع هو فقدان ذاك الأمان. ونجد أنَّ أكثر ما يتحدث عنه الصعلوك هو أنَّه طريد أي مُطارد من أعدائه، لذا فحياته مضطربة غير مستقرة مليئة بالمخاطر ومراقبة الأعداء من حوله للدفاع عن حياته،يقول الشنفرى (الشنفرى،1982، ص 81):

(بحر الطويل)

طَرِيْدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقِيْرَتُهُ لِأَيِّهَا جُـرَّ أَوَّلُ

تَبِيْتُ إِذَا مَا نَامَ يَقْظَى عُيُونُهَا حِثَاثًا إِلَى مَكْرُوهِهِ تَتَغَلْغَلُ

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

يتحدث الشنفرى عن طرده الذي جعله مهمومًا حتى تقاسمت الهموم لحمه فباتَ نحيلاً، متشردًا لا يعرف هدوء بال، وكيف يهدأ له بالوهو يشعر أنه ملاحق؟ ومطالب بجريرة من جرائره التي يتبرأ منها. (عَقِيْرَتُهُ لِأَيِّها جُـرَّ أَوَّلُ)حينما جعل نفسه كالذبيحة التي تصدرت الماشية، وحينما أرادوا أن يذبحوا ذبيحة لضيف دخلوا الحظيرة وأخذوا المتقدم من الخراف لتميزه عن الباقي فذبحوه، وهذا ما حدث للشنفرى في سبب طرده من القبيلة. فهو كما قيل عنه بأنَّه شجاع وفارس وسريع جداً، لذا كان على قبيلته أن تُضحِّي به وتطرده لأجل سلامتها وسلامة أبنائها، فشعوره بالظلم جعله يوجه هذه الرسالة إلى من يسمع شعره بأنَّه طُرِدَ ظُلماً، وأنَّ القبيلة التي تظنه قتل أحد أبنائها لا بُدَّ بأنْ تراقبه وتبحث عنه لأجل الثأر منه، لذا فهو دائم التنقُّل والترقب خوفاً على حياته، لعلمه بأنَّ طلب الثأر والملاحقة لا يتوقفان عند القبيلة-صاحبة الثأر- مهما طال الزمن، حتى يرتاح المقتول في قبره بأخذ ثأره.

ثالثاً: الشعور بالغربة والوحدة: ويمثِّل التشرد وفقد القبيلة عاملاً مهمًا في شعور الصعاليك بالغربة، والتي دفعت الشاعر الصعلوك للحديث عن التشرد بطريقة متفردة من خلال الاغتراب الذي يعيشه في الصحراء، ولا يملك معه إلاَّ التفجُّع والحزن من إحساسه بالتخلي والترك، وما له من علاقة بالموت وحيداً، فالموت بجزيرة العرب مرتبط في أكثر الأحوال في المكان أي الصحراء، فتنقله الدائم فيها هارباً مُختبئاً وحيداً يؤدي إلى الشعور بالاستسلام لواقعه المُظلم، " والذي يؤدي بدوره إلى التوجس الدائم خوفًا من الموت وحيداً لِتأكل الضواري جُثته، فكما أنَّ الأرض تخلت في جزيرة العرب عن سكانها – أبنائها – فدفعتهم في كثير من الأحيان إلى الرحيل، كذلك كان تخلي القبيلة عن بعض أبنائها كتخلي جزيرة العرب عن سكانها" (ضيف، شوقي(د.ت)، العصر الجاهلي، ص 30)، " فالجميع – العرب في صحرائهم والصعاليك المطرودون من قبائلهم – ينتظر الموت هائماً مُختفياً عن أعين الأعداء بسبب الثأر. وما ينتج عنه من جوع" (اليوسف، يوسف(1985)، ص 31) وشعورهم بالوحدة والغربة شعور قاتل والأصعب منه الاستسلام لمصير كالحٍ مُظلم إذا أمسك به الأعداء أو أُصيب أو مرض وهو وحيد لا يجد من يُعينه أو يحميه فخوفه أشدُّ ألماً من الموت، فاتَّخذَ الصعاليك الجوع والفقر رموزاً ومعاني أُخرى تولدها تكون مُضمرة أو تنتج عنها. " ولهذا تعاطف العرب في جزيرتهم مع بعضهم حتى ولّد عندهم خلقًا عظيمًا هو الكرم"(اليوسف، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط4، دار الحقائق، لبنان، 1985، ص 21)، لمشاركتهم الوجدانية لما يشعرون به ويعيشونه من حياة أو موت في الصحراء.

رابعاً: إحساس بالغيظ والغضب والثورة على الظلم الاجتماعي القبلي: لقد ظهر في العصر الجاهلي جماعة من أبناء القبائل العربية، ثاروا على النظم الاجتماعية العربية، فما كان من هذه القبائل إلاّ أن قامت بإخراجهم من القبيلة وطردهم ليعيشوا حياةً لا إنسانية، الأمر الذي أدى إلى انتشار صيحات الجوع والفقر في أشعارهم، ودفعهم شعورهم بالظلم إلى التعاطف مع الفقراء الجياع، "حتى قيل إنه كان يطلق على عروة بن الورد "عروة الصعاليك" لأنه كان يجمع الصعاليك الضعفاء في حظيرة ويرزقهم مما يغنم" (الأصفهاني، أبو

الفرج، د.ت، الأغاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، لبنان، ج 3، ص 81.)، فقد كان يشن غاراته على الأغنياء البخلاء من القبائل ليطعم فقراء الصعاليك، وهذا ما دعا شوقي ضيف وغيره من الكتاب ليطلقوا عليه لقب"روبن هود العرب" (ضيف، شوقي، د.ت، ص287)؛ لتشابه ما كان يفعله مع روبن هود الغرب من سرقة الأغنياء لإعطاء الفقراء. ولهذا الإحساس - الإحساس بالجوع والفقر- الناتج عن التشرد، كان الصعاليك يغيرون فرادى وجماعات على القبائل، وهدفهم من ذلك إثبات وجودهم وتحقيق منزلة رفيعة في مجتمع تخلى عنهم (أبو زيد ،2011، ص 288)، وعاملهم باحتقار وشردهم حتى باتوا يبحثون عن الطعام كما تبحث عنه الحيوانات المفترسة (انظر:الشنفرى، 1982، ص 74.)، " لذلك كانوا يواجهون الحياة كما يواجهها الحيوان من حيث إنهم وحيدون"(خليف، يوسف، د.ت،ص23). "مُحاولين بذلك أولاً التخفيف من حنقهم على طردهم وتشردهم كتعويض نفسي مما لحقهم من هذا التشرد والضياع، وأيضاً لفت الانتباه لهم لعل القبائل تُرجعهم إليها ليعيشوا حياة الأمن والسلام."فالمجتمع الجاهلي مجتمع ظالم، وتوزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب" (نبوي، 2002، ص162)، لذلك كانت الصعلكة ردة فعل طبيعية على بيئة اجتماعية ظالمة يعيش فيها الغني حياة متخمة مترفة، أما الفقير فإنه جائع يحاسبه المجتمع على فقره، وإذا دفع به الفقر والجوع إلى الاعتراض أو ارتكاب الجرائر طلبًا للرزق، فإن القبيلة تطرده لجرائره، فيصبح صعلوكًا مشردًا. فإنْ قام بسرقة أو قطع الطريق ليأكل ويزيل ما به من فقر طاردوه وقتلوه. ولكن هل من المنطق أنْ ترجع القبيلة من طردته من المجرمين لحماها وهي تعلم أنَّ بفعلها هذا سيدخل عليها حروباً لا تنتهي مع القبائل التي ستأخذ الثأر لقتيلها من هذا المجرم؟ بالطبع لا.

وهذا ما يدفعنا إلى الوقوف عند علم النفس والشذوذ النفسي الذي يقول: "إن التطور الاجتماعي يترك آثاره على مختلف ميادين الحياة، وأكثر ما تبدو آثاره في حقول القوانين الثقافية والاجتماعية، سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة – أعراف، عادات، تقاليد – بشكل ينسجم مع مسيرة الفعل الذاتي للتجمعات البشرية(أسعد، 1994، ص93)، وهذا ينسجم مع طبيعة الأعراف التي كانت تتخذها القبيلة العربية دستورًا يتفق مع الفعل الذاتي للتجمعات البشرية لكن هذا الدستور لم يُرضِ مَن رأوا فيه ظلمًا فثاروا عليه.

خامساً: الشعور بالحرمان: يمثل الجوع أحد أشكال الحرمان المبني على التشرد وعدم الاستقرار، والإنسان المستقر في مكان لا أظنه يعاني من الجوع معاناة المشرد، والدليل على ذلك كثرة صيحات الجوع والفقر عند الشعراء الصعاليك، فهم لا يفتؤون يذكرون شدة الجوع وحال أمعائهم، وينتج عنه تحول الجسم وضعف في البنية الجسدية، حتى أننا نجد الشنفرى يعطي هذه الصفة للحيوانات التي توحد معها وحدة استلاب كما يقول يوسف اليوسف، فيجعلها نحيلة تحمل من صفاته الخَلقية قبل الخُلقية (اليوسف، 1985،ص21)، يقول الشنفرى (الشنفرى، 1998، ص67):(بحر الطويل)

وَلِي دُونَكُم أَهْلُونَ سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وَ أَرْقَطُ زُهْلُولٌ وعَرْفَاءُ جَيْأَلُ

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

لقد اختار أهلاً آخرين غير قبيلته وأهله وهم حيوانات الصحراء، وأهله الجدد يُماثلونه بالجوع والتشرد والضياع فهم يُشبهونه حتى أصبح معادلاً موضوعياً لكل فرد منهم. ولقد صور جميع الحيوانات المفترسة المذكورة في البيت بالنحيلة، فهي خفيفة اللحم، وأظنُّ بأنَّ الشنفرى حينما أضفى عليها هذه الصفات، إنما أضفاها لإحساسه بطبيعة الحياة التي تجمعه بها، فهم جميعًا متشابهون فهم مشرّدون، لا يعرفون استقراراً، وهم دائمو البحث عن الطعام الشحيح، وشح الطعام أعطاهم خفة في اللحم نتج عنها خفة في الحركة، وهذا هو حال الصعلوك، فهو يلتقي مع الحيوانات المفترسة في جوعها النابع من ضياعها، إذ لا أهل ولا قبيلة، فكيف لمن عاش هذه الظروف أن يسمن بدنه وفكره مسموم؟

وعقد مُقارنة بين هؤلاء الأهل الجدد (الحيوانات المفترسة) وأهله السابقين البشريين (مُعرِّضًابهم). أما الصفة الخَلقية للجدد: فهم يُعانون الفقر والتشرد وعدم الأمن والحذر الدائم من الأعداء وقلة اللحم والطعام، بينما البشر من أهل قبيلته فهم أغنياء وبخلاء يشعرون بالأمن والطُمأنينة. وأمَّا الصفات الخُلقية للجدد فهي ممثلة بكتمان السر وعدم التخلي عن بعضها في حين أن البشر من أهل قبيلته إذا استودعهم سرًا أفشوه وتخلوا عن صاحبه وخذلوه وطردوه، فيصبح الإنسان طريدًا شريدًا جائعًا غريباً وحيدًا خائفًا كما حدث له مع قبيلته، يقول الشنفرى (الشنفرى، 1998، ص67):

(بحر الطويل)

هُمُ الرَّهْطُ لا مُسْتَوْدِعُ السِّرِّ شَائِعٌ لَدَيْهِم، ولا الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

سادساً: الشعور بالغربة والحنين للماضي: يمثل الجوع والصبر أحد أهم الركائز التي توقف عندها الصعاليك، منصرفين بعد ذلك للحديث عن الإيثار في نفوسهم، "ولهذا فليس بغريب إذا كان العربي كريمًا بسبب تعاطفه مع أخيه الإنسان في طبيعة صحراوية أصابها اليبس" (اليوسف، 1985، ص21) فكيف لا يتعاطف إنسان مشرد لا يحس بشيء إحساسه بالجوع مع الجياع من البشر خاصة، وجميع المخلوقات عامة؟ وإن كان الشاعر في الأبيات السابقة يتحدث عن إيثار أبنائه على نفسه. ومن هم الأبناء عند عروة؟ إنهم فقراء وضعفاء الصعاليك الذين لجؤوا إليه ليعتني بهم، فعدَّهم أبناءه. وهم أيضاً جعلوه أبًا له.

ويختلف تناول التشرد والضياع في الشعر من صعلوك لآخر بحسب ما يُعانيه من فقر وتشرد وقوَّة وضعف، فعلى حين نجد الصعلوك القوي يستخدم قوته وسرعته للإغارة على القبائل وقطع الطرق كالشنفرى وتأبط شرًا والسليك بن السلكة فيقوم بالفخر بقوته وشجاعته ويصف غاراته مُتفاخراً وكأنَّه بذلك يُرسل رسالة لقبيلته بأنَّها خسرته لتندم على فعلها. ونجد صعلوكاً آخر ضعيفاً لا يمتلك الشجاعة أو القوة والسرعة للإغارة فنجده مُعدماً قد اشتدَّ جوعه وحزنه ويتذكر الماضي عندما كان في حمى قبيلته يقدمون له الطعام والانتماء والأمن فيحن للماضي وتنهمر دموعه على واقع بائس لذا نجد شعره يصف الغربة والجوع والتشرد وضعف

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

الحيلة والصبر حزيناً، فيضطره الجوع والخوف لمرافقة الصعاليك الأقوياء كعروة بن الورد كعامل تعويضي عما فقده من حماية القبيلة واهتمامها به، فيجد عند عروة الاهتمام والأمن المفقودين.

المبحث الثاني: أثر التشرد والضياع على صفات الصعاليك:

لقد أثَّر التشرد والضياع على حياة الصعاليك وعلى فلسفتهم بالحياة وعلى صفاتهم بعد أنْ تشرَّدوا في الصحراء الواسعة. أما صفة الإيثار التي تغنَّى بها الصعاليك في شعرهم، فهو -كما يرى الدارسَون - شعوراً بالأمان قد توفر بعد أن افتقده من جهتين:

الأولى: وجود الطعام غير المتوفر عادة في الصحراء. والثانية: الشعور بالأمن مع عائلة تأكل معه وتشاركه هذا الشعور المُريح لنفسه بعد كثير من الخوف والتنقل. فكان شعور الاطمئنان أكثر حاجة للإشباع من الإشباع المادي ممثلاً بالطعام. كقول أبي خراش الهُذلي الذي كان لا يمد يده إلى الزاد خوفه من الاتهام بالجشع فهو لا يتقبَّل هذه الصفة، ويختار الموت جوعاً على حياة تلحقه فيها صفة الطمع والجشع(الهذليين،1965، ص128):(بحر الطويل)

أَرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ قَدْ تَعْلَمِيْنَهُ وَأُوْثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيالِكِ بِالطَّعْمِ

مَخِافَةَ أنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذِلَّةٍ وَلِلْمَوتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمِ

وكان الشنفرى خير من جسد الإيثار من خلال معنى عظيم، فقد بيَّن فيه الشاعر حاله وقد وضع الطعام أمامه وهو شديد الجوع، فنجده يتأخر في مد يده إلى الزاد إيثارًا لغيره. فالصعلوك عامة والشنفرى خاصة يخشى من الذم وهو في أحلك الظروف وأقساها، إضافة إلى ذلك فإنه يؤثر الآخر على نفسه. يقولالشنفرى(الشنفرى، 1998، ص68):(بحر الطويل)

وإنْ مُدَّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكُنْ بأعجلهم، إذ أجْشَعُ القومِ يَعْجَلُ

فالشاعر يؤكد في البيت الأول على أنه يتحاشى أن يمد يده خشية أن ينعت بحب الذات، ثم يصور لك هذه الذات وقد باتت معدته من شدة الجوع كخيوط الغزّال لضعفها وخلوها من الطعام، فالجوع مصاحب له. إن ذكره للإيثار في الطعام إنما يلتقي مع أرسطو في " مسألة التطهير التي يقوم عليها الأدب" (أرسطو طاليس، د.ت، ص71، ص79)، وكذلك مع " نظرية التسامي التي تشير إلى إطلاق العنان للطاقة الحيوية وتصريفها بأسلوب أكثر رقيًا من الناحية العقلية والأخلاقية، بحيث تتناسب مع قيم المجتمع، لذلك يتسامى الشاعر عن الدوافع النفسية المكبوتة إلى دوافع أكثر قبولاً في المجتمع"(عيسوي،

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

د.ت،ص164-166). لذلك نجد الصعاليك يفضلون الموت جوعاً ولا أنْ تلحق بأحدهم صفة الطمع والجشع كصفة سلبية تُلحق العار بالإنسان في مجتمع القبيلة فكيف إنْ كان الصعاليك لا يملكون طعاماً كافياً ليبقهم أحياءً.

ولهذا نجد الشاعر يوحد بينه وبين الذئب في باب الجوع، وأن طعامهما بيد الطبيعة إن تكرمت عليهما، وهذا الذي دفع الشنفرى أن يجعل لوحة كاملة من اللامية مبنية على المشبه هو الشنفرى الجائع المشرد، والمشبه به الذئب الذي تهادته التنائف، فهو مشرد جائع، يقول الشنفرى (الشنفرى،1998، ص 74):

(بحر الطويل)

وأغدو إلى القُوت الزَّهيد كما غدا أزلُّ تهاداهُ التنائِفُ، أطحلُ

لو بدأت تفسير هذه اللوحة بالسؤال: لماذا يصور الشنفرى نفسه وقد طرق باب الطعام من جميع جهاته؟ أجيب فأقول: إن طلب الشنفرى للطعام من حيث أمَّه دلالة على أنه يبحث عن الطعام في جميع الأماكن التي يعرفها والتي لا يعرفها دون تحديد، وإذا انعدم تحديد المكان فإني لا أظن انعدامه إلاّ دلالة على ضياع صاحبه في الأرض، ولهذا اختار الذئاب لتكون معادلاً موضوعيًا له في جوعه وبحثه عن الطعام بقوله(الشنفرى، 1998، ص75):(بحر الطويل)

فأغضَى وأغضَتْ وابْتَسَى وابتسَتْ به مَراميلُ عَزّاها وعَزَّتهُ مُرْمِلُ

قلنا إن الشنفرى قد توحد مع الوحش في "وحدة الاستلاب التي تمارسه الطبيعة عليهما"،(اليوسف، 1985، ص20) ومن أشكال الاستلاب الذي تمارسه الطبيعة عليهما في البيت السابق، هو سلب حياة الاستقرار بالنسبة للإنسان (الشنفرى)، والتشرد بالنسبة لهما، " فقانون القبيلة يقوم على طرد مَن يُدمن على الفواحش والمساوئ، والجرائر واحدة من المساوئ" (ضيف، د.ت، ص 70)، التي كان يعاقب عليها قانون القبيلة في حال تكرار الجرائر، فالشاعر مطرود لكثرة جرائره كما في قوله (الشنفرى،1998، ص81) :(بحر الطويل)

طَرِيْدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ عَقِيرَتُهُ لأيّهَا جُرَّ أَوَّلُ

يبيّن الشنفرى أن جرائره كانت سبباً لطرده من القبيلة، فنتج عن كثرة جرائره أن أصبح كالحيوانات المفترسة من حيث التشرد وعدم الاستقرار وما يتبعه من جوع، لهذا بات الشاعر – كما قال

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

– معزٍ لهذه الذئاب بجوعه، وهي كذلك، " فإنها تعزيه بجوعها وتشردها، فالشنفرى إذ يفرغ ذاته على الذئاب، إنما يحاول أنسنتها من خلال إظهار العلاقة بين ما تعانيه من انهزام وضياع أمام الواقع وبين ما يعانيه الشاعر" (اليوسف، 1985، ص47). ثم يتحدث الشنفرى عن حاله وحياته التي علمته الإصرار على طلب حقها، مصوراً نفسه التي لاتنسى ثأرها مع الجوع والعطش، يقول الشنفرى (الشنفرى، 1998، ص113):(بحر الوافر)

ولا ظمأٌ يؤخِّرُني وحرٌّ ولا خُمصٌ يقصِّرُ من طِلابِ

يتحدث الشاعر عن حاله وشجاعته فهذه الصفة جعلته لا يُبالي بما كان يضرُّه ولا سيما عند مطالبته بحقه وثأره، فيتناولها من خلال تصوير أشد الأشياء قسوة على نفس الإنسان، فتكون من خلال تصوير ما ينتج عن الفقر من عناء وتعب، فيختار الظمأ الدال على القسوة المرتبطة بشدة الحياة، وحرارتها المقيدة بالحر، ويختم هذه الصورة الدالة على الشدة من خلال الجوع الذي يجعل الإنسان يتراخويتقاعس عن حقه وينسى معاناته ومطالبه في سبيل الشبع.

إن الفرق الحقيقي بين المعنى اللاشعوري والمعنى قبل الشعوري، إنما يتلخص في ارتباطه بالصور اللفظية المطابقة له، فأتت ألفاظ الفقر والجوع " لتدل على ما هو لاشعوري وما قبل شعوري من حيث الإحساس بالضياع الناتج عن الطرد" (فرويد، 1982،ص35).

ونضرب مِثالاً على قصيدة تأبط شراً في المفضليات على صفات الصعلوك التي أصبحت منتشرة بين الصعاليك، فيقول(المفضليات، د.ت، ص28):(بحر البسيط)

إنِّي إِذَا خُلَّةُ ضَنَّتْ بِنَائِلِهَا وَأَمْسَكَتْ بِضَعِيْفِ الوَصْلِ أَحْذَاقِ

نَجَوتُ مِنهَا نَجَائِي مِنْ بِجلَةَ إِذْ أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أَرْوَاقِ

فهو يتحدث عن سرعته وشجاعته، فمهما كَثُر الأعداء فقوته تكفي لردهم خائبين، ثمَّ يقول(المفضليات، د.ت، ص28):(بحر البسيط)

لَكنَّمَا عِوَلِي إِنْ كُنْتُ ذَا عِوَلِ عَلَى بَصِيرٍ بَكَسْبِ الحَمْدِ سَبَّاقِ

سَبَّاقِ غَايَاتِ مَجْدٍ فِي عَشِيرَتِهِ مُرَجِّعِ الصَّوتِ هَدَّاً بَيْنَ أَرْفَاقِ

عَارِي الظَّنَابِيبِ مُمْتدٍّ نَوَاشِرُهُ مِدْلَاجِ أَدْهمَ وَاهِي المَاءَ غَسَّاقِ

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

حَمَّالِ أَلْوِيَةٍ شَهَّادِ أَنْدِيَةٍ قَوَّالِ مَحْكَمَةٍ جَوَّابِ آفَاقِ

فيتحدث عن شهامته وأخلاقه مُبيّنًا أنَّه لا يقلُّ عن غيره من الناس في مجتمعه،

" فهو كريم وصوته عالٍ، وهو صادق ولا يتغيَّر على أصدقائه ويقتحم الليالي المُظلمة الممطرة وهو شجاع مقدام يحمل لواء الحرب في الحرب، وذا رأي صائب في المجالس في السلم، ويستحق الاحترام والتقدير، فهو يصف صورة للصعلوك المثالي"(جابر، 1990، ص23)، وينتقل تأبط شراً بالحديث عن قوَّته في صعود الجبال وسرعته مُستعيناً بنعلٍ بالية في حرارة الصيف المُحرقة، فيقول(المفضليات، د.ت، ص29):(بحر البسيط)

وقلَّةٍ كَسِنَانِ الرُّمْحِ بَارِزَةٍ ضَحْيَانَةٍ فِي شُهُور الصَّيْفِ مِحْرَاقِ

بَادَرْتُ قِنَّتَهَا صَحْبِي ومَا كَسَلُوا حَتَّى نَمِيْتُ إِلَيهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ

ثُمَّ يختم قصيدته بالحديث عن كرمه و" فلسفته في الحياة بأنه لا شيء يبقى" (جابر، 1990، ص23)، ويطلب من التي تلومه أنْ تكف عن لومه، فيقول

(المفضليات، د.ت، ص30):(بحر البسيط)

بَلْ مَنْ لِعَذَالَةٍ خَذَّالَةٍ أَشِبٍ حَرَّقَ باللَّوْمِ جِلْدِي أَيَّ تِحْرَاقِ

يَقُولُ أَهْلَكْتَ مَالاً لَوْ قَنِعْتَ بِهِ مِنْ ثَوْبِ صِدْقٍ وَمِنْ بَزٍّ وأَعْلَاقِ

عَاذِلَتِي، إِنَّ بَعْضَ اللَّوْمِ مَعْنَفَةٌ وَهَلْ مَتَاعٌ وَإِنْ أَفْنَيْتُهُ بَاقِ

كان الصعلوك يهتم بالصفات المثالية له وأيضاً يشترط على من يُرافقه أن تكون صفاته تُحاكي صفاته سواء الخَلقية أو الخُلقيّة، كما علمنا من تأبط شرًا لذا رافقه كل من الشنفرى والسليك بن السلكة، وكأنَّ صفاتهم تُشبه صفات الفرسان في العصر الجاهلي، لذا يرى الباحثان أنَّها رسالة للقبائل التي طردتهم بأنَّ قرارهم كان خاطِئاً ولو أبقوهم لدافعوا عن قبائلهم وقت الحاجة. ونجد أنَّ هناك تشابهاً كبيراً بين هؤلاء الصعاليك وبين الفرسان كعنترة بن شداد، فلو طردت قبيلة عبس عنترة لوجدناه صعلوكًا وشعره لا يختلف عن شعر تأبط شرًا والشنفرى، ولكن فروسية عنترة وحبُّه لعبلة وعدم اقترافه للجرائر لم تجعل منه صعلوكاً مُشرَّداً، بل فارس عبس وأشجع شجعانها.

الخاتمة:

مجلة قراءات للدراسات والبحوث النقدية والأدبية واللغوية ISSN: 1112- 8658 مجلد: 11
، عدد : 01، شهر: جوان ، سنة: 2023 E-ISSN:2602-7259
عنوان المقال: التشرُّد والضَّياع عند الشعراء الصعاليك(دراسة في أبعادهما الدلالية)
صفحة: من 122 إلى 140

جاءت هذه الدراسة لتستخرج الدلالات المضمرة في استخدامه للفقر والجوع رمزًا لما يُعانيه من تشرد وضياع، فبالنسبة للجاهلي المطرود من قبيلته للجرائر التي ارتكبها فأجبرت القبيلة على طرده حِفاظًا على بقائها وحياة أبنائها، فعاش حياته خائفًا مُطاردًا يهرب من الموت الذي يتربصه من كل جانب في صحراء الصيف المُحرقة المُجدبة. ولقد ارتبط الحديث عن التشرد بترك الديار وهجرها، وهذه سنة عند العرب جميعًا، لأجل ذلك سعى العربي لتعويض هذا النقص المتمثل بالفقد الدائم للمكان، فاستعاض عنه بالاستقرار النفسي من خلال انتمائه لقبيلة، هي ذاته بل كيانه فوجودها يعني وجوده، فإذا تخلت عنه القبيلة شعر بالضياع والتشرد، لا بل نجده يشعر بالقلق والتوتر، لأن حياته بالطرد عرضة للهلاك والمطاردة، وقد خرجت الدراسة بالآتي:

1- لقد تحدث الصعاليك عن الجوع والفقر، فهما الصورة الأنضج التي تتفاعل معها النفس، ولا سيما إذا خافت من الهلاك في تشردها، لذلك نجد الحديث عن الجوع والفقر شكلاً من أشكال التعبير عن التشرد والضياع، فالتشرد المكاني لم يعد مقصوداً عند الصعاليك، بل التشرد هو فقد القبيلة وما ينتج عنه من ضياع اقتصادي يؤدي إلى الفقر والجوع، لذلك كثرت في أشعارهم صيحات الجوع والفقر.

2- إنَّ العلاقة بين النفس والإحساس بالجوع الناتج عن تخلي القبيلة عن أبنائها الذين كثرت جرائرهم ولّد لديهم إحساسًا بالضيق والثورة على المجتمع الظالم بالإغارة على القبائل وقطع الطريق عسى يلفتوا الانتباه لهم، ليكون بمثابة استدرار لعطف القبيلة، وبالتالي العودة لحياة إنسانية طبيعية، حياة الشبع والإرتواء بالانتماء لقبيلة.

3- يمثل التشرد والضياع في الصحراء أحد أشكال الشعور أو ما قبل الشعور النفسي للشاعر والمرتبط بالذاكرة التي كانت في مرحلة ما ادراكات حسية، وقد تمثلت بحياة الشاعر بالقبيلة. والشعور بالأمن المفقود، لذا نجدهم يحنُّون للماضي ويتغنون به.

أما صفاتهم التي اكتسبوها من تشردهم في الصحراء فهي الكرم والإيثار والشجاعة ومساعدة الضعفاءوالوقوف بوجه الظلم والمروءة. وجاءت هذه الصفات لشعورهم بالسمو والقوة التي تجعلهم أسياداً وليسوا مطرودين من قبائلهم كنوع من الثورة على تقاليد القبلية الجاهلية.

المراجع:

—إبراهيم، وليد عبد المجيد(2001)، الشعر الهزلي العباسيحتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الورَّاق للنشر والتوزيع، عمان.

–أبو زيد، سامي يوسف، وكفافي، ذيب(2011)، الأدب الجاهلي(ط 1)، دار المسيرة، عمان.

–أبو غزالة، معاوية محمود(2013)، علم النفس العام(ط1)، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن.

–أسعد، علي(1994)، علم الشذوذ النفسي، ط2، منشورات جامعة دمشق، سوريا.

–الأصفهاني، (د.ت)، الأغاني، د.ط، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، لبنان.

–ابن سلكة، السليك(1994)، الديوان(ط1)، قدّم له : سعد الضّناوي ، دار الكتاب العربي، بيروت.

–ابن قتيبة(د.ت)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.

–ابن الورد، عروة (1994)، الديوان(ط1)، شرح ابن السكيت ، قدّم له راجي الاسمر، دار الكتاب العربي، بيروت.

–تأبط شرًا (2012)، الديوان(ط3)، اعتنى به: عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت.

–جابر، عادل، والرقب، شفيق(1990)،كتاب خاص في تاريخ الأدب القديم، دار الصفاء، عمان.

–حفني، عبدالحليم (1979)، شعر الصعاليك(ط2)، الهيئة المصرية العامة، مصر.

–الختاتنة، سامي محسن، أبو أسعد، أحمد عبداللطيف، الكركي، وجدان خليل(2015) ، مبادئ علم النفس(ط 4)، دار المسيرة، الأردن.

–خليف، يوسف(د.ت)، الشعراء والصعاليك (ط3)، دار المعارف، القاهرة.

–دمنهوري، رشاد صالح، والنجار، علاء الدينالسعيد(2009)، سيكولوجيا الشخصية(ط3)، خوارزم العليمة للطباعة والنشر، السعودية.

–الشنفرى (1998)، الديوان(ط1)، ت: علي ناصر غالب، دار اليمامة، الرياض.

–الضَّبي، المُفضَّل(د.ت)، المفضليَّات(ط6)، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، د.ن، بيروت.

–ضيف، شوقي(د.ت)، العصر الجاهلي(ط8)، دار المعارف، القاهرة.

–طاليس،أرسطو، (د.ت)، فن الشعر، ترجمة: ابراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية،مصر.

- عيسوي، عبد الرحمن(د.ت)، الإسلام والعلاج النفسي، دار النهضة العربية، بيروت.
- فرويد، سيجموند (1982)، الأنا والهو(ط4)، ترجمة: أحمد عثمان نجاتي،دار الشروق، القاهرة.
- منسي، حسن، ومنسي، إيمان(2004)، التوجيه والإرشاد النفسي ونظرياته (ط1)، دار الكندي، الأردن.
- نبوي، عبدالعزيز(2002)، دراسات في الشعر الجاهلي(ط1)، مؤسسة المختار النشر والتوزيع، مصر.
- الهذليين (1965)، الديوان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- اليوسف، يوسف(1985)، مقالات في الشعر الجاهلي(ط4)، دار الحقائق، لبنان.